

الآيات 61- 58 من سورة البقرة

{وَاذْكُرُوا الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ عَنْهَا وَإِذْ كُنْتُمْ فِيهَا تَكْفُرُونَ وَكُنْتُمْ فِيهَا كَاذِبِينَ} (58)

{و}اذكروا { إذ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } قال بعض المفسرين هي بيت المقدس ورجحه ابن كثير، وقيل هي أريحا مدينة في الشام قريبة من بيت المقدس.

قال ابن كثير: والصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد سجدا أي شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. انتهى

وقال ابن عثيمين: و{القرية} هي البلد المسكون؛ مأخوذة من القرى. وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسكونة قرية لتجمع الناس بها؛ ومفهوم القرية في اللغة العربية غير مفهومها في العرف؛ لأن مفهوم القرية في العرف: البلد الصغير؛ وأما الكبير فيسمى مدينة؛ ولكنه في اللغة العربية. وهي لغة القرآن. لا فرق بين الصغير، والكبير؛ فقد سمى الله عز وجل مكة قرية، كما في قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} [محمد: 13] : المراد بقريته التي أخرجته: مكة، وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها} [الشورى: 7] : فسمى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة، والكبيرة. انتهى

{ فَكُلُوا مِنْهَا } الأمر للإباحة أي فأباحنا لكم أن تأكلوا منها {حَيْثُ شِئْتُمْ} أي في أي مكان كنتم من البلد في وسطها أو أطرافها تأكلون ما تشاءون {رَعَدًا} أي واسعا، عيشا هنيئا واسعا بغير حساب.

{ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا } قالوا هو أحد أبواب بيت المقدس، ادخلوه وأنتم راكعون، أمروا أن يدخلوا ركعا " وأصل السجود: الانحناء لمن سجد له مُعْظَمًا بذلك، فكل منحن لشيء تعظيما له فهو ساجد؛ فذلك تأويل ابن عباس قوله: {سجدا} ركعا، لأن الراكع منحن، وإن كان الساجد أشد انحناء منه.

{وَقُولُوا حِطَّةٌ} أي قولوا هذه الكلمة: حطة، أي اخطأ عَنَّا خَطَايَا ذُنُوبَنَا {نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} الطائعين نزيدهم بالطاعة ثوابا.

أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات. و"المغفرة" هي ستر الذنب، والتجاوز عنه فلا يعاقب عليه، والخطايا، جمع خَطِيئَةٍ، و"الخطية" ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى "أخطاء" جمع خطأ؛ ولهذا يفرق بين "مخطئ"، و"خاطئ"؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها.

والشكر على النعمة عند حصولها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى لهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر. وكان السلف مباشرة عند النعمة يفعلون الطاعات شكرا لله عليها، إما بسجود الشكر أو بالصدقة أو بغير ذلك.

{قَبَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)}

{قَبَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} أخرج البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقلوا حطة، فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حبة في شعرة.» أي: أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجدا فدخلوا يزحفون على استاههم من قبل استاههم رافعي رؤوسهم وأمروا أن يقولوا حطة أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزأوا فقالوا حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته.

{فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ} الرجز العذاب أي أنزل الله عليهم عذاباً من السماء {يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ} أي أنزل العذاب بسبب فسقهم أي خروجهم عن طاعته فهذا معنى الفسق الخروج عن الطاعة.

{وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)}

واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني ، {استسقى} أي طلب السقيا، أن أسقيكم، وطلب تيسيري لكم الماء، وكانوا قد عطشوا وهم في التيه، فأخرجنا لكم من حجر معكم وفجرنا منه الماء لكم من اثنتي

عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين ماء قد عرفوها {مَشْرَبَهُمْ} مَوْضِعُ شُرْبِهِمْ قَلِيلًا يَشْرَكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ، فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد واعبدوا الذي سخر لكم ذلك {ولا تعثوا في الأرض مفسدين {أي: تخربوا على وجه الإفساد، ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها.

قال أهل العلم: الْقُرَاءُ كُلُّهُمْ قَرُّوْا {وَلَا تَعْثَوْا} يَفْتَحُ الثَّاءُ، مِنْ عَثِيَ يَعْثُو عَثْوًا وَهُوَ أَشَدُّ الْفَسَادِ، وَفِيهِ لُغَتَانِ أَحْرَبَانِ لَمْ يُقْرَأْ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا: إِحْدَاهُمَا عَثَا يَعْثُو مِثْلُ سَمَا يَسْمُو؛ قَالَ ذَلِكَ الْأَخْفَشُ وَغَيْرُهُ، وَلَوْ جَازَتْ الْقِرَاءَةُ بِهَذِهِ اللَّغَةِ لَقُرِيَ {وَلَا تَعْثَوْا} -أَيِ بضم الثاء-، وَلَكِنَّ الْقِرَاءَةَ سُنَّةٌ وَلَا يُقْرَأُ إِلَّا بِمَا قَرَأَ بِهِ الْقُرَاءُ. انتهى.

نبهنا عليها لأن البعض يقرأها بضم الثاء وهو خطأ في قراءة القرآن.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ قَادُغٌ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)}

{و} اذكروا {إِذْ قُلْتُمْ} يا بني إسرائيل لموسى {يَا مُوسَى لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ} لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد، أي مللنا من أكل نفس الطاعم دائما ولا صبر لنا على البقاء على هذه الحال، ويعنون بالطعام الواحد المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم وهم في التيه، واختلف أهل العلم لماذا قالوا (طعام واحد)، وهما اثنان. فبعضهم قال هي لغة صحيحة وأسلوب عربي، فالعرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين، والبعض قال لما كانوا يخلطون المن والسلوى في طعامهم عدوهما واحدا، والبعض قال أرادوا السلوى خاصة لأنها هي التي تؤكل والمن يشرب، والبعض فسر الطعام الواحد بغير ذلك.

كان هذا القول منهم في التيه حين ملوا المن والسلوى وتذكروا عيشهم الأول بمصر.

{قَادُغٌ لَنَا} فاسأل لأجلنا {رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ} يعني من الزرع الذي يخرج من الأرض، فقد مللنا من المن والسلوى، وبينوا الأنواع التي يطلبونها بقولهم {مِنْ بَقْلِهَا} البقل: كل نبات ليس له ساق، كالكراث، والجزر، والفجل، والشجر: ما له ساق {وَقِثَّائِهَا} الخيار، وقيل البطيخ، وقيل الفقوس، وقيل هو اسم لكل هذا وما يشبهه {وَفُومِهَا} الصحيح أنه الحنطة أي القمح، والبعض قال الثوم، وقيل غير ذلك {وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا} والعدس والبصل معروفان.

ف {قَالَ} لهم موسى {أَلَسْتَبْدِلُونَ} الاستبدال: وضع الشيء موضع الآخر، ومنه

البدل، يعني تريدون تبديل {الَّذِي هُوَ أَدْنَى} أخس وأردأ {بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} أفضل، يعني قال لهم موسى: تريدون أن تتركوا الأفضل والأجود وتحصلوا على الأردأ والأقل فضلاً، أتبديلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل الذي هو أدنى باليمن والسلوى الذي هو خير. قال لهم هذا إنكاراً عليهم، فهو طلب لا يطلبه العقلاء {اهبطوا مصرًا} يعني: فإن أبيتم إلا ذلك فانزلوا مصرًا واختلفوا في المراد بالمصر هنا، البعض قال المراد انزلوا بلداً من البلدان، وقال البعض: هو مصر موسى وفرعون، والأول أصح والله أعلم فليست البلد المعروف الآن، ولكن المقصود أي مصر كانت؛ اهبطوا أي مصر من الأمصار تجدون ما سألتكم {فإن لكم ما سألتكم} نبات الأرض.

ثم أخبر الله عز وجل بما حصل عليهم فقال: {وضربت عليهم} جعلت عليهم وألزموا {الذلة} الذل والهوان {والمسكنة} الفقر، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء، لأن الفقر حقيقة فقر القلب فلا ترى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود، ومع أن المال في أيديهم كثير إلا أنهم أذلاء فقراء القلوب لا يشبعون، وبخلاء جداً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى عَنْ النَّفْسِ» العَرَضُ: متاع الدنيا من المال وغيره، ومعنى الحديث الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى

{وباءوا بغضب من الله} أي رجعوا بغضب الله وانقلبوا به ولزمهم غضب الله {ذلك} أي الغضب لزمهم {بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله} أي بسبب كفرهم بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن لا يؤمنون بذلك {ويقتلون النبيين} قتلوا غير واحد من أنبياء الله تبارك وتعالى {بغير الحق} أي يقتلونهم بالباطل، والنيبون لا يقتلون بحق أبداً فهم معصومون عن فعل ما يستوجب قتلهم، ولكن قال بغير حق كي يبين شناعة فعلهم وسوئه ووضوحه، فحتى مع علمك أن النبي لا يستحق القتل لكن إذا قيل لك قتلوه بغير حق كان أوقع في نفسك وأعظم في التشنيع عليهم {ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون} يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي، فالعصيان الخروج عن الطاعة، والاعتداء مجاوزة الحد.

قال ابن عثيمين رحمه الله: والفرق بين "المعصية"، و "العدوان" إذا ذكرا جميعاً: أن "المعصية" فعل ما نهى عنه؛ و "الاعتداء" تجاوز ما أمر به، مثل أن يصلي الإنسان الظهر مثلاً خمس ركعات؛ وقيل: إن "المعصية" ترك المأمور؛ و "العدوان" فعل المحذور.

وسواء أكان هذا أم هذا فالمهم أن هؤلاء اعتدوا، وعصوا؛ فلم يقوموا بالواجب، ولا تركوا المحرم؛ ولذلك تدرجت بهم الأمور حتى كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه؛ وفي

ذلك دليل لما ذهب إليه بعض أهل العلم أن المعاصي بريد الكفر؛ فالإنسان إذا فعل معصية استهان بها، ثم يستهين بالثانية، والثالثة ... وهكذا حتى يصل إلى الكفر؛ فإذا تراكمت الذنوب على القلوب حالت بينها، وبين الهدى، والنور، كما قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} (المطففين: 14)